السلفية

بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية

د. مصطفى حلمي
أستاذ بكلية دار العلوم / جامعة القاهرة

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع
١ شارع منشا - محرم بك ا الاسكندرية

الســـلفية
بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م
الطبعة الثانية ١٤١١هـ ـ ١٩٩١ م

رقم الايداع
٤٧٥١ ـــ ١٩٨٣

بسم الله الرحمـن الرحيم

« السلفية » بين العقيدة الاسلامية والفلسفة الغربية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سـيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهـديه الى يوم الدين وبعـــد ...

فان من أوليات المنهـج الصحيح فى الدراسات الاسـلامية ضرورة الفصل بين الاسلام فى أصوله وبين المسلمين أثنـاء عصـور التدهـور والضعف ـ لا سيما فى العصر الحاضر ـ ولا ينبغى لباحث منصف تحميل الاسلام أوزار المسلمين ، حيث تثبت الدراسـة الواعيـة الامينـة ، ان القاعدة عكسية ـ أى أن الاسلام فى عصور الصحابة والتابعين ومن اقتدى بهم ـ كان سببا فى ارتقاء الامة ومنعتها وسيادتها ، فلما ضعفت صلتها به أو انحرفت عن عقيدته الصحيحة التى اعتنقها السلف ، انحدرت الى سفح الحضارة وخضعت لغيرها من الامم الطامعة فى بلادها وثرواتها .

ويسهل استقراء هذا القانون الذى تعبر عنه أحداث تاريخية ثابتـة ومدونة ، بحيث يؤلف هـذا القانون قضـية منطقية صـادقة بمقـدماتها ونتـائجهـا .

ومحور قضيتنا يدور حول تحليل مفهوم (السـلفية) فى التصـور الاسلامى بالمقارنة بنفس المفهوم فى الفلسفة الغربية وتاريخها وحضارتها لنبين الاختلاف الجذرى والتضاد الاسا سى بين مصـطلح السـلفية بين العقيدة الاسلامية والفلسفة الغربية ، ولنقنع أصحاب دعوة (العصرية) و (التجديد) فى فهم الاسلام وتطبيقه شريعة ونظما ، أو النظر اليه كنوع

من تراث الاباء والاجداد ، بينما هو فى حقيقته وحى الله تعـالى اختتم به رسالاته الى أهل الارض قاطبة •

ونلحظ أول ما نلحظ كمقدمة وقبـل الشروع فى الموضـوع انرئيسى للكتاب — ان كثيرا من الكتاب والباحثين قد تأثروا بالتصـورات الفلسفية المنتقلة الينا من الغرب — سواء عن عمد فى شكل غزو ثقافى للتشـويه أو بسبب القابلية للتغريب بسبب فقدان الثقة بالنفس خضوعا لقوة جـذب الحضارة الغربية ، ونعنى بذلك مثلا تقسيم عصور التاريـخ الى قـديم وعصور وسطى وحديثة ، والذى يبدو فى ظاهره مجرد تقليد ومحاكاة ولكنه فى الحقيقة يحمل فى طياته دلالات بالغة الاهمية على تاريخنا وفهم عقيدتنا الاسلامية ، اذ ان له آثارا عميقة على العقـل والوجـدان والشـخصية الاسلامية لانه يدعو الى نبذ تراث المـاضى وبذلك يشـكل أحـد أدوات الغزو الثقافى الهادف الى قطع صلة الامة بتراثها بخطة محـكمة التـدبير متعددة الوسائل كأذرع الاخطبوط تمسك بزمام فريستها بأكثر من ذراع ولكن الغرض هو الاجهاز عليها •

كذلك فى ضوء الصراعات الايديولوجية فى عصرنا يجب الحرص على معرفة العقيدة الاسلامية الصحيحة ، اذ نعتقد أن هذه المعرفة تعد حجـر الزاوية اذا أردنا مقاومة غزو الفلسفات والنظـريات المعاصرة المعـادية للاسلام ، وعندئذ سيتضح للمسلم المعاصر فى ضوء عقيدته المطابقة لعقيدة السلف بعد الشـقة بينه وبين دعاة مزج الاسـلام باتجـاهات حـديثة كالاشتراكية والقومية والوطنية والديمقراطية وغيرها •

واننا نقرر عن ثقة انه لا خلاص من هذه التصـورات المختلطـة الا بالاستمساك بعقيده السلف • وآية ذلك أن بعض خصوم الاسـلام عندما

أعيتهم الحيل بمهاجمة الاسلام صراحــة ، لجــأوا الى التنفيس عمــا فى صدورهم بمهاجمة الاتجاه السلفى •

واتباعا لمنهج المقارنه سنناقش فى الفصل الاول بعض الاراء الفلسفية المعادية للسلفية فى الغرب بالمدلول التاريخى أو الفلسفى والحضارى •

وليس شرطا أن نجد لفظ (الســلفية) واردا فى كتابات الفلاســفة والمؤرخين فى اوروبا • اذ أحيــانا نســتخلصه من روح بعــض النماذج فنستخلص عداءا ونفورا لكل ما يشير الى السلف بالمدلول التاريخى •

فمثلا ورد لفظ (السلفيه) صراحه فى كتاب توينبى عن تاريخ العالم ، كما ظهر فلاسفة (سلفيون) فى القرن الثامن عشر الميلادى كرد فعل لمآسى الثورة الفرنسية وآثارها المدمرة على الدين والاخلاق والمجتمع فى أوربا •

ولكن ظهــر المعنى مستورا فى افتراضــات أوجست كونت بتقسيمه للمراحل التى مر بها التطور الفلسفى وفقا لقانون الحــالات الثــلاث اذ يحمل مدلول افتراض أن تاريخ العالم يسير قدما الى الامام وأن المرحلة القادمة أرقى من الحالية أو السابقة (١) •

---

(١) اولا : الحالة الدينية وتتلخص فى تفسير الظواهر المختلفة بعلل اولية تتشخص بصفة عامة فى الالهة .

ثانيا : الحالة الميتافيزيقية ويسيطر فيها على حياة الدول مذهب فلسفى تعسفى •

ثالثا : الحالة الوضعية التى تتلخص فى تفسير الظواهر بالعلل الاخرى التى تقوم على الملاحظة العلمية .

ولكنه عاد فى نهاية حياته فاراد ان يؤسس نوعا من الدين يقوم على عبادة (البشرية) باعتبار أنها (الكائن الاعظم) .

ينظر كتاب جاستون بوتول : تاريخ علم الاجتماع ص ٥٧ــ٦١ ترجمة د. محمد عاطف غيث والاســتاذ عبــاس الشربينى ــ الدار القــومية للطباعــة والنشر ١٩٦٤م

ونفس المدلول تقريبا تعبر عنه الفلسفة الماركسية التى تصوران تحقيق نظمها فى الاقتصاد والاجتماع والسياسة يمضى قدما الى الامام على أثر الصراع بين الطبقات وخلافه يعنى الرجعية •

وسنعرض لتفاصيل ذلك كله توطئة لتفنيده من وجهة النظر الاسلامية وعلى الاخص السلفية •

لذلك ناقشنا فى الفصل الثانى من الكتاب بعض الظنون الخاطئة عن المناهج التى اتبعها السلف •

اذ أن استقراء دراسات المستشرقين بصفة خاصة لتدلنا على خططهم فى تشويه صورة السلف فى الاذهان ، فاذا علمنا أن هؤلاء المستشرقين كانوا طلائع الغزو الثقافى الغربى ، أيقنا أنهم ما فعلوا ذلك الا لعلمهم صعوبة التغلب على الامة الاسلامية ما دامت مستمسكة بالعقيدة التى كان عليها السلف ، فأخذوا يصيغون الاساليب ويتفننون فى الطرق المؤدية الى الاساءة اليها بالتشويه المتعمد للعلماء المعبرين عن الاتجاه السلفى — من المحدثين وغيرهم — مع كيل المدح والاطراد لمخالفيهم ، وابتداع نحل جديدة باسم الاسلام ، بينما الاسلام برىء منها كالقاديانية والبابية والبهائية كما سيتضح ذلك تفصيلا فى هذا الكتاب •

وسنرى أيضا كيف قامت الحضارة الاسلامية على عقيدة التوحيد حيث مهما طالع المرء من كتب ومهما قرأ من مؤلفات لتاريخ الاسلام بحثا وتعليلا وتفسيرا ، فسيتأكد لديه أن حضارة التوحيد — أن صح التعبير — ما قامت الا على العقيدة التى عرفها السلف وحافظوا عليها وتقيدوا بالتزاماتها •

ولهذا تطلب البحث فى الفصل الثانى مناقشه ما يدور فى دوائر خصوم السلفية ولعل فى مقدمتها اتهام أصحابها بانهم يعتمدون اكثر ما يعتمدون على السمع أو النقل وينبذون طريق العقل، ومن هنا كان عزوفهم عن (الكلام) وكان هذا الاخير هو المنهج العقلى الوحيد الكفيل بالمحافظة على العقيدة والدفاع عنها .

وسيظهر لنا خطأ هذا الرأى أيضا ، لانه ليس من الضرورى استخدام مناهج المتكلمين والفلاسفه حيث تنبه علماء السلف الى الاستدلالات العقلية فى النصوص الشرعيه .

ولفهم حقيقة الفرق المخالفة لاهل القرون الاولى ، خصصنا الفصل الثالث لتناول بعضها بالدراسة المقارنة يحدونا الحرص على اقناع المخالفين فى الرأى الى صحة المنهج السلفى بالادلة والبراهين وخلاصة القول فى هذا الصدد أن أعمدة حضارة المسلمين قامت على تطبيقهم لتعاليم دينهم فى أصولها الاولى . فكانت عقيدة السلف هى ركن الاساس ، ومنها انطلق علماء الاسلام فى مجالات الفقه تنظيما للحياة الاسلامية فى جوانبها التشريعية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية كلما جدت مشاكل تحتاج الى اعمال الذهن اجتهادا .

وكأن خط سير حضارتنا له معالمه المتميزة ، لان الامة مكلفة بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر وقادها الرسول ﷺ مقتحما عقبات جسام من رفض وعناد داخلى وعناد وحروب خارجية ، فاقتحمها جميعا ، وعاد الى مكة منتصرا فكان الفتح ايذانا بنشر الرسالة على العالم أجمع ، بعد معرفة المسلمين — وفى مقدمتهم الخلفاء الراشدين — لمهام رسالتهم وأهدافها ، فلا الغزو والفتح فى ذاته أرادوا ، ولا استعباد الشعوب واذلالها راموا ،

وما زعموا انهم سادة الارض بل حددوا رسالتهم وأهدافهم فى كلمات قليلة، هى الاحتكام الى شرع الله تعالى واقامته .

وربما كان أدق ما يعبر عن ذلك قول ربعى بن عامر لقائد الفرس رستم حينما سأله عن سبب مجىء المسلمين فأجاب (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عباده العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعة الاخرة ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ، فأرسلنا بدينه الى خلقه لندعوهم اليه)[٢] .

بهذا الوضوح والقطع ، تميزت حضارة المسلمين عن غيرها من الحضارات بعلاقاتها مع أمم العالم وقامت أصولها فى الداخل على أعمدة العقيدة أيضا ، فما تحقق من تقدم عمرانى وازدهار معمارى ومؤسسات ذات كيان انسانى كان صدى للعقيدة الاسلامية بجوانبها المتعددة والامثلة كثيرة : منها نظام الوقف الاسلامى الذى شمل قطاعات كبيرة من الناس ، كرعاية المرضى والإنفاق على طلاب العلم وانشاء المساجد وتربية اليتامى وغير ذلك من أعمال البر والخير ، وكلها كانت مظهرا من مظاهر نبض قلوب المسلمين ووجدانهم بما يحملونه من عقيدة تحثهم على ذلك كله .

وكان خط سير التاريخ يتعرج مع أحداثه الجسام منذ تحول الخلافة الى ملك ، وانقسام الدولة الاسلامية فى عصر العباسيين الى امارات وممالك مستقلة ، وتعرض المسلمين لحروب ضارية من الصليبيين والتتار[٣] ،

---

(٢) تاريخ الطبرى اخبار سنة ١٤هـ (ابتداء امر القادسية) .

(٣) يقول لوثروب ستودارد :

وكانت بغداد مدينة عظيمة وعاصمة كبيره ، فيها كرسى الخلافة ومركز الحضارة العربية ، فانقض عليها المغول سنة ١٢٥٨م واعملوا فيها ايدى التخريب والتدمير فذبحوا اهلها تذبيحا ..

. وكانت هذه الحضارة قد أصيبت ، من قبل نازلة المغول ، بضربة اخرى فى الغرب ، وهى نازلة الاندلس .

(حاضر العالم الاسلامى جا ص ١٧) .

ومؤامرات داخلية على يد الباطنيين كالاسماعيلية والزنج ، وظهور أنبياء كذبة وأئمة مضـــلين ، بدءا بمسيلمة الكذاب والاســـود العنسى ، وانتهاء بالبهاء والقادبانى •

لذلك فاننا سنتكلم عن بعض المخالفين لمنهـــج الســـلف كالخـــوارج والشيعة الامامية داخل دائرة الاسلام ، والفرق الاخرى التى مرقت من الدين نفسه كالباطنية والبابية والبهائية والقـــاديانية والنصـــيرية ، ليميز المسلم المعاصر بين عقيدة الاسلام الصحيحة المتلقاة عن الســـلف مـــؤيدة بالحجج والبراهين ، وبين هذه العقائد النابعـــة من تأويـــلات خاطئـــة ، وليحترس من الوقوع فى حبائلها •

اننا فى حاجة الى تعديل طرق حياتنـــا لكى (ترتـــقى) الى المستوى الاسلامى الذى كان عليه السلف بعقيدته ونظمه فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة والشئون التعليمية والتربوية والثقافية ، فضلا عن تحقيق القيم الاخلاقية على مستوى الافراد والمجتمعات ، وهذا أمر متاح لان المقومات التى شكلت ذلك كله فى تاريخ حضارتنا ما زالت باقية حية وهى :

ـ كتاب الله تعالى المحفوظ بعنايته ما زال قائما بين أيدينا وســـيظل كذلك الى قيام الساعة . وسنة نبينا محمد ﷺ تتضمن سيرته مدونة بأمانة ودقة كاملتين فى شتى دروب الحياة الانسانية وتراث العلماء واجتهاداتهم يعبر عن ذخيرة حية تفاعلت مع نبض الحياة وما زالت منبعا وزادا للمسلمين المعـــاصرين •

أضف إلى ذلك وسيلة الاقناع التى لا تقبـــل الجـــدل ، ان التاريـــخ الواقعى المطبق لتعاليم الاسلام قد تحقق بصورة تـــكاد تكون مثالبـــة فى

العصور الاولى المفضلة . وظلت تتكرر بصورة أو بأخرى كلما قام المسلمون بالاستمساك بما كان عليه الاوائل فى العصور المفضله .

والمنهج السلفى يحمل طابع (المعاصرة) الدائمة لاننا عندما نتبعه عندئذ يمكنا شجب دعاوى التطور فى فهم العقيدة أو مراعاة روح العصر ، أو المرونة والتآخى مع عقائد الامم الاخرى ، الى غير ذلك من شعارات تؤدى الى (تذويبه) الفوارق بين عقيدة التوحيد الاسلامية وغيرها ، ومن ثم نفقد أقوى أسلحتنا لاعادة تكوين شخصية الامة على الاصل الجوهرى لحضارتها . يحول دون التبعية والانقياد وراء حضاره العصر والتلاشى فى ثقافتها وانماط سلوكها ونظمها المخالفة لنا .

كما لا نشك فى أن الضوابط والمقاييس الثابتة التى تحددها السلفية كفيلة بتخريج طلائع غذة لقيادة الحضارة الاسلامية من جديد .

لذا فان اهتمامنا باجلاء عقائد السلف ومناهجهم يرجع الى اقتناعنا بأنها أهم أصول حضارتنا، ونأمل اذا مافهمناها وعملنا بمقتضاها يتحقق استئناف الأمة لقيادة العالم من جديد ، ولن يتحقق ذلك الا بأوليات ينبغى التفاف المسلمين حولها ، فنبدأ أول ما نبدأ بالعقيدة كما فعل سيد الخلق محمد ﷺ تعليما وتثبيتا وتنشئة . ثم المحافظة على كيان الامة من (الذوبان) فى غيرها من الامم الاخرى .

تلك نقطه البداية لانها متعلقة بجذور حضارتنا اذا ما اصطلحنا على تعريف الحضارة بأنها تلك المتعلقة بالاسس الثقافية والاصول المعنوية ــ كالعقيدة والثقافه والقيم وطرق الحياة ــ دون المظهر الخارجي المعبر عنه بالمدنية[٤] .

---

(٤) د. فؤاد زكريا ــ الانسان والحضارة فى العصر الصناعى ص ١١٤ مركز كتب الشرق الاوسط سنة ١٩٥٧م .

ولعل فهم هذه النقطة الدقيقة يعفينا من تكرار الرد على خصوم السلفية الذين يظنون بأننا ندعو الى العودة الى الوراء والحياة وفق نمط الحياة المدنية السائدة فى العصور السالفة •

ان الفهم للاختلاف الثقافى بين الحضارات لا يحول دون الافادة بمنتجات الغرب العلمية التقنية ، أو محاكاة شعوبه فى التنظيم والادارة وتخطيط المدن والجدية فى العمل واقامة المصانع وتجهيز الجيوش والعناية بالتربية والتعليم فى مراحل العمر المختلفة ، ومجاراتهم فى تطوير نظم العلاج الطبى واقامة المستشفيات والمصحات ، واقامة شبكات المواصلات على أحدث المبتكرات فى البر والبحر والجو •

يضاف الى ذلك تقليدهم فى الاخلاق العلمية التى تميزهم فى دقة التخطيط والامانة فى متابعة التنفيذ •

كل ذلك وغيره أدى بهم الى الخطوات الواسعة التى قفزها الغرب قفزا الى الامام فسبقنا بقرون فى المجال العلمى التكنولوجى •

لذلك فاننا مطالبون ، بل نقول :

انه فرض كفاية كفروض الكفايات التى يأمر بها الاسلام ، ولم لا والقرآن والحديث يأمران صراحة بالعمل والسعى والانتشار فى الارض تعلما وبحثا وتنقيبا ودراسة ؟•

لم لا وقد نفذت أجيال السلف هذه الاوامر فشادت صرح حضارة ظلت مؤثرة وفعالة لمدة نيف سبعة أو ثمانية قرون حتى تسلمت رايتها حضارة الغرب وخطت بها الى النتائج التى نراها جميعا ؟•

ولن نسأم من اعادة القول وتكراره المرة تلو الاخرى ، ان التحذير

الذى نرفع عقيرتنا به قاصر فقط على التقليد العقدى والثقافى والايديولوجى وعلى المثل والقيم الغربية فى النظر الى الدين والقيم والاخلاق ، وتقييمهم الفسلفى للانسان أصولا ونشأة ومصيرا ونهاية .

وبعد فاننا نسـأل الله تعالى أن يفيد هذا الكتاب المسلمين عامـة وأصحاب الدراسات المتخصصه فى الجامعات والمعاهد العلمية خاصة كمنهج ارشادى فى البحوث المتصلة بدراسة أصول الدين (علم الكلام) ، أو قضية التراث والعصرية وتقويم الحضارة الغربية من وجهة النظر الاسلامية ، أو المناهج التاريخية وفلسفة التاريخ .

والله نسأل أيضا أن يجعل عملنا خالصا لوجهه وابتغاء مرضاته .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مصطفى حلمى

الاسكندرية فى :

٢٢ من ذى الحجة سنة ١٤٠٣هـ .

٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٨٣م .